

الخطاب السجالي مفهومه و خصائصه و علاقته بالمعرفة

Article title / Polemic discourse: conceptualisation, characteristics and its relationship with knowledge

نور الدين عبد الكبير¹ ، أ.د. أحمد جاب الله²¹ جامعة باتنة 1 الحاج لخضر ، (الجزائر)، nourdinne.abdelkebir@univ-batna.dz² جامعة باتنة 1 الحاج لخضر ، (الجزائر)، ahmed.djaballh@univ-batna.dz

مخبر دعم التكوين : مخبر الأبحاث في التراث الفكري و الأدبي بالجزائر

تاريخ الإيداع: 2022/09/05 تاريخ المراجعة: 2023/01/26 تاريخ النشر: 2023/03/31 (331-321)

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تطلعنا على أن الخطاب السجالي يبقى خطابا ابستمولوجيا، يسعى إلى بناء المعرفة أو المشاركة فيها، من خلال قيامه على تقديم بديل إبستمولوجي يغني المعرفة أو يغذيها ويرسم مبدأ الاختلاف في الرأي، ويدافع عن قيمة الإبداع الذي يناقض التبعية والتحجر والاحتفاء بما هو سائر في الأوساط الثقافية، فمن خاصية الخطاب السجالي التمرد، خاصة في ثقافتنا أو الوعي المجتمعي، ويحاول في الوقت ذاته فرض رؤى الذات المتساجلة وتصوراتها عن الوجود، فهو عدو الإبداع بسبب الموروث الذي يسيطر على أنه الأنموذج الذي ينبغي إتباعه والاحتفاء به.

الكلمات المفتاحية: الخطاب السجالي، المساجلة، الحجاج، الكفاءة، التحيز، المعرفة.

Abstract: (Times New Roman , size 11, the distance between lines 1 cm)

The present study attempts to demonstrate that polemic discourse is an epistemological discourse that endeavours to contribute to and construct knowledge by presenting an epistemological alternative that enriches, nurtures knowledge and draws the principle of difference in opinion. It also defends the value of creativity that contradicts subordination, fossilisation and celebration of what is common in cultural circles. Then, polemic discourse is characterised by rebellion, especially in our culture or societal consciousness, while at the same time, it attempts to impose discernible self-perceptions and existence perceptions. It is the enemy of creativity because of the inheritance, which dominates as the model to be followed and appreciated.

Key words: polemic discourse, polimecization, competence, Pilgrims , prejudice, knowledge

* المؤلف المراسل.

نور الدين عبد الكبير ، nourdinne.abdelkebir@univ-batna.dz

تقديم:

يرى الكثير من الباحثين أن الخطاب السجالي شكل من أشكال التفاعل الخطابي، و كما يعد حدثا لفظيا قائما على آلية التواصل بين طرفين، وقد يحيل على معنى المبارزة بين خصمين، ويحدث نوعا من الصراع لدرجة العداوة بينهما، إنه خطاب خلاف أو اختلاف قد يجر إلى الخصومة أحيانا أو إلى الحرب أحيانا أخرى كما يرى أريوني¹، ونحن في هذا البحث بصدد معرفة مفهوم الخطاب السجالي وإشكالية المصطلح، و مبحثنا بعنوان : الخطاب السجالي مفهومه و خصائصه وعلاقته بالمعرفة، ويمكن القول أن الحضارة العربية أنتجت بيئات خصبة للحجاج والسجال، وخاصة في العصر العباسي الذي مكنته هجنته الثقافية والعرقية من بروز عشرات الفرق المذهبية والكلامية، واختلاطها بالديانات الأخرى ضمن منظومة دار الإسلام كما نجده في كتاب الملل والنحل والمناظرات الكلامية التي كتبها المؤرخون، أمثال الطبري والمسعودي وغيرهما، وقد برز الخطاب السجالي في العصور التي تلت العصر العباسي، حتى وصل إلى أوجه في عصر الحداثة والنهضة العربية، والتي شملت كل شيء في كل الميادين، ولكن الذي نركز عليه هنا هو الخطاب السجالي من حيث المفهوم وضبط المصطلح وعلاقته بالمعرفة باعتباره خطاب ثنائي من حيث الشكل، رسالي جدالي من حيث الفعل ولكن الذي يبعث عن التساؤل هو: ما هو الخطاب السجالي ؟ وما هي أهم خصائصه ؟ وما علاقته بالمعرفة ؟ وهل يعتبر شكلا من أشكال التواصل اللغوي وما الفائدة منه ؟ و هدفنا في هذا كله هو الكشف عن نوع من أنواع الخطاب الثنائي من جهة، و من جهة أخرى تسليط الضوء على الجانب الوظيفي للخطاب السجالي ، و قد استعملنا في ذلك منهج التحليل الوصفي المشفوع بالنقد، واعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها : ابن منظور : لسان العرب في شقه التعريفي، و هيثم سرحان: بلاغة الخطاب السجالي – مقارنة تداولية في مراسلات أبي جعفر المنصور والنفس الزكية، ياسين الشعري: الخطاب السجالي من الاختلاف إلى مناقضة الاختلاف – مقارنة بلاغية حجاجية، و غيرها من المصادر الأخرى، و منه فأنتني وضعت خطة عمل للبحث بها سبعة عناصر أو مباحث ابتداء من الخطاب السجالي مفهومه وإشكالية المصطلح، إلى إبراز أهم الخصائص للخطاب السجالي ثم الخطاب السجالي وعلاقته بالمعرفة، ثم ختمت المقال بعدة نتائج و الله الموفق لكل خير .

أولا : الخطاب السجالي مفهومه وإشكالية المصطلح

أ/ تعريف السجال لغة :

جاء في "لسان العرب" لابن منظور "سجل" السَّجَل : الدلو الضخمة المملوءة ماء، مذكَّرٌ وقيل : هو مِلْؤها ؛ وقيل : إذا كان فيه ماء قلَّ أو كثر، والجمع سِجَالٌ وسُجُولٌ، ولا يقال لها فارغة سَجْلٌ...و في الحديث أن أعرابيا بال في المسجد، فأمر بسَجْلٍ فصَبَّ على بوله، والسَّجْلُ أعظم ما يكون من الدِّلاء، وجمعه سِجَالٌ، وقال لبيد : يُحِيلُونَ السِّجَالَ عَلَى السِّجَالِ، وَأَسْجَلَهُ: أعطاه سَجْلا أو سَجْلَيْنِ².

وقالوا الحروب سِجَالٌ ؛ أي سَجْلٌ منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء، والمساجلة مأخوذة من السَّجْلِ، وفي حديث أبي سفيان : أن هرقل سأله عن الحرب بينه وبين النبي -صلى الله عليه وسلم - فقال له : الحربُ بيننا سِجَالٌ ؛ معناه : إن تُدَالَ عليه مرّة، ويُدَالَ عينا أخرى ؛ قال : أصله أَنَّ المُسْتَقِينَ من البئر يكون لكل واحد منهما سَجْلٌ، أي دلو ملأى ماء³.

وساجل الرجل : باراه، وأصله في الاستقاء، وهما يتساجلان، والمساجلة : المفارقة ؛ بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي، قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب :
من يساجلي ساجل ماجدا*بمأ الدلو إلى عقد الكرب.**

قال ابن بري: أصل المساجلة أن يستقي ساقيان، فيخرج كل واحد منهما في سجله مثل ما يخرج الآخر، فأيهما نكل فقد غلب... وأسجلت الكلام أي أرسلته، والسجل : كتاب العهد ونحوه⁴، والجمع سجالاً، ولا يكسر السجل، وقيل السجل الكتاب، وقد سجل له ؛ وفي التنزيل العزيز : "كُتِبَ السَّجِّلُ لِلْكَتُبِ..."⁵، وجاء في التفسير : أن السجل الصحيفة التي في الكتاب، وفي التنزيل العزيز : "تَرْمِيَهُمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ"⁶ قيل هو حجر من طين، وهو لفظ دخيل⁷.

وجاء في المعجم الوسيط (ساجله) : باراه وفاخره، و(سجل) : كتب السجل، وقضى وحكم وأثبت حكم، وأثبت حكمه في السجل والعقد ونحوه : قيده في سجل رسمي، والخطب ونحوه في البريد : قيده في سجل خاص، حفظاً له من الضياع، وعليه بكذا : شَهِرَهُ (أنسجل)؛ يقال أنسجل الماء والدمع : أنصب، وساجلوا : تباروا وتفاخروا، و(الساجول) غلاف القارورة "ج" سواجيل، (السجيل) : الطين المتحجر⁸.

ب/ تعريف السجال اصطلاحاً :

يمكن تعريف الخطاب السجالي : "أنه ذلك الخطاب الإختلافي الذي يجري بين طرفين أو أكثر، لكل واحد منهما موقف مخالف للآخرين يسعى إلى إلجائه وتبكيته، وبيان فساد ما يذهب إليه، فالمساجلة إذا يروم إعادة تشكيل العالم ومكوناته المختلفة ليصبح مطابقاً لفرضياته"⁹.

و أما الدلالة اللغوية لمفهوم السجال، فالخطاب السجالي وليد فعل السجال، ومماثله في التباري والرغبة في الغلبة والفلج على الخصم¹⁰.

ثانياً - إشكالية المصطلح حضوره وتصوره :

تظهر أهمية الخطاب السجالي باعتباره متعلقاً بالثقافات والحضارات الإنسانية بتنوعها واختلافها خاصة أنه يشتغل على بلاغة الاختلاف والتداول¹¹.

"وتتضمن المساجلة أو (التبادل السجالي)، Polemical eschange، على حد تعبير ديسكال (M.dascal)، شخصين على الأقل يستخدمان اللغة ليخاطب كل واحد منهما الآخر، ويتحداه في مواقفه وآرائه، فنظرياته تقوم على المواجهة الخطابية شرط أول دونه لا يمكن الحديث عن تبادل سجالي، لذلك يخرج (ديسكال) من دائرة المساجلة خطابات سجالية لا يتسنى فيها لأحد المتنازعين المشاركة الفعلية في السجال، "فنحن ها هنا تجاه سجال أحادي الطرف ولسنا أمام تبادل سجالي حقيقي"¹².

ويبقى الإشكال مطروحاً في ما يتعلق بحدود المساجلة ومداه، وعلى العموم فإن التقديرات تتوقف على المقياس الأول: وهو مدى ذلك الخلاف الدائر بين المساجلين، والثاني : نوع القضية المتسببة في حصوله، والثالث : الأدوات المعتمدة في فضه، والرابع: بالغاية التي ينشدها المتخاصمان من انخراطهما في السجال الدائر بينهما، وهذا ما ذهب إليه "ديسكال" على أن المساجلة ترجع إلى ثلاثة أصناف كبرى وهي : النقاش (Discussion)، والخصومة (Dispute)، والجدال (Dintroversg)¹³.

ف نجد السجلات السياسية والفكرية والثقافية، التي تناولت مفاصل جوهرية شائكة في المجتمعات التي تفرزها أفهام متباينة، و آراء مختلفة ومتأكدة، خاصة إشكالية الحداثة والتقليد، فنجد مثلا في التراث العربي القديم كان سجل الجرجاني مع القاضي عبد الجبار، ومن سجلات النهضة العربية - مطلع القرن الماضي- كان خطاب المرأة : التأويل والتأويل المضاد : قراءة في إستراتيجية الخطاب السجالي لكتابي السفور والحجاب والفتاة والشيخون لنظيرة زين الدين، 1908-1977م، ومن المسجلات النقدية في مرحلة الحداثة في الأدب السعودي وآليات الخطاب السجالي في النقد العربي الحديث : النقد الثقافي وتطبيقاته العربية أنموذجا¹⁴.

ويمكن أن يؤرخ ل بدايات الخطاب السجالي في فترتين تتصل الأولى بالتوحيدية؛ التي أسست سجالاتا مباشرة مع التعددية التي تأسست مع فيلون الإسكندرية، أما الثانية فتتصل بالسجلات بين بعض الكتاب المسيحيين واليهود منذ عهود قديمة، ثم تجدد حتى أصبح فاعلا في القرن العاشر الميلادي، ومنه يقول الدكتور معجب العدواني: "كما لعب السجلات دورا مهما لا يمكن تجاهله في الفلسفة منذ أفلاطون..."¹⁵

ثالثا - الخطاب السجالي وفكرة التحيز:

فكرة التحيز من خصائص الخطاب السجالي، والتي تأسس على اعتبارين، أولهما : تضخيم الذات والتمركز حولها؛ إذ يتم مراوغة الخصم باللغة لخلق استراتيجيات جاهزة، وتتسم الذات بكل سيمات التعالى والفوقية، وهي قد لا تظهر في البداية ولكنها تنمو تصاعديا، حتى تصبح رمزا للكمال والتفوق والعلم... أما الاعتبار الثاني فهو محاولة تغييب الآخر والانتقاص منه وتهميشه في محاولة لإقصائه، وذلك بعته بكل النعوت الانحطاطية¹⁶.

ومن هذا تتعالى مركزية الذات بالتعالى والتميز والتفوق على حساب الترويج لهامشية الآخر وتحقيره لدرجة إصابته بالسيمات السلبية، كالتوتر والانفعال والجهل، ومنه يستبعد فكرة تقبل نسقه الثقافي .

وإذا قال الدارسون بخاصية خطاب التحيز في الخطاب السجالي، فهذا لا يعني نفي الآخر نفيا مطلقا؛ وإنما يجعله على الهامش فقط... على هذا النحو تغدو الذات السجالية مركبة من طرفين متميزين ومختلفين، هما الأنا والآخر، يسعى كل منهما إلى الإيضاح في خطابه عن هذا الاختلاف والتميز¹⁷ لا ينكر أي دارس للخطاب السجالي وجود صراع بين المنافسين يطيح بمبدأ التعاون الذي يفترضه كل حوار ويصل إلى حد الشتم و الثلب وتبادل التهم .

"فالغالب على الخطاب السجالي أن يظهر المساجل في مفتحه استعدادا للحوار والتعاون مع الخصم وأن يكشف عن النوايا الحسنة التي رفعتها إلى الرد، والمتمثلة في إيقاف الخصم على أخطائهن وإطلاعه على السبل الكفيلة بإصلاحها ومجاوزتها وفي وجوه إظهار الحرص على التعاون أن تكون بداية الخطاب السجالي أو نهايته إشادة بخصم بما فيه من جوانب نيرة وإيجابية كثيرة..."¹⁸.

ومنه تتلاشى فكرة التحيز بعد اتضاح الرؤيا أو أنها تبقى كامنة في "الأنا" ومنه خرج النقد الذاتي والذي هو طريقة يساير بها الفكر مصادره وأفكاره، وكان استحضار أعمال الآخرين ومناقشتها وتحقيقتها وبيان خطئها، ووهنها وتهافتها سجالاتا، إن لم يرقم على المواجهة المباشرة.

"ومن المحاولات المتخيلة التي كانت عند الفلاسفة بمقارنة الفكرة بالفكرة والرأي ونقيضه، وفي ذلك ضرب في الحصانة والحيطة وكبح جماح الفكر الذاتي حتى لا يرى الأشياء في زاوية واحدة ولا يطلق العنان لذاتيته فيسقط في الأنانية والغرور والشطط"¹⁹.

رابعاً: تعدد المنجزين في الخطاب السجالي

يقع السجال ضمن ما ينتجه المجتمع من خطابات، وما يدور بين المتكلمين في حوارات لها مكانة مهمة لا يستأثر بها مجتمع بعينه، ولا تنحصر في فضاء واحد ولا جنس بعينه، فبين الحين والحين تقوم بين الزوج وزوجته مشاجرات كلامية، وبين العالم ونظيره نقاشات علمية، وبين رجال الدين داخل الديانة الواحدة وبين الديانات المختلفة والملل مجادلات وردود كلامية، وبين الأديب والأديب معارك وخصومات أدبية²⁰.

من هنا يتخذ الخطاب السجالي تعدداً من حيث الإنجاز، وقد يجري في فضاءات متنوعة كقاعات البرلمان التي تدوم لساعات، يتجسد فيها الخلاف بين الأعضاء فيما بينهم، والأعضاء والوزارة، ويحدث فيها النقاش وتبادل فيها التهم والتهجم على الخاطب أو المخاطب؛ وهي النزعة الطاغية على المداولات، وما تشاهده في القنوات الفضائية في برامج كالاتجاه المعاكس، والحوارات التي يسودها التوتر والانفعال ويتحول النقاش فيها إلى نزاع وحرب كلامية تعلوا فيها الأصوات يكاد فيها حبل التواصل أن ينقطع لولا تدخل مدير الحوار لتهدئة الخواطر وجبر النفوس وتخليص السجال²¹.

والمناظرة من أبرز تجليات السجال في الفكر الإسلامي القديم، حيث كان ارتباطها أولاً بعلم الكلام و أصول الفقه والفلسفة الإسلامية ثم توسعت دائرتها لتشمل كل مناحي الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية، "إن المناظرة ممارسة حوارية قائمة على التفاعل بين متخاطبين، يشتركان في صنع المعرفة عبر مسار حجاجي"²².

و منه فإن المناظرة التي اتسمت بالفكر الإسلامي و عالجت قضايا العقيدة الإسلامية ودافعت عنها، عن طريق مجادلة أهل الكتاب و المشركين و منه خلقت نوعاً من الحوار البناء و الرجوع للمنطق و الأصل.

ومنه يقول الدكتور عبدالفتاح أحمد يوسف "إن الخطاب السجالي بهذا الاعتبار هو خطاب شرطه الوحيد هو تعدد المنجزين... فهو ليس ناتجاً لخطاب الذات وحدها، فهو تثبت الخطاب وتصورات الأنا والآخر، "فالأنا" لا تستطيع أن تبدع خطابها بدون الآخر والمعاكس، حيث يحضر خطاب كل طرف بقوة في خطاب الطرف الآخر، وكما أن الأنا لا تستطيع أن تعيش بدون الآخر في فلسفة (هيغل)؛ لأن موت أحد الطرفين ينهي حالة الجدل"²³.

و منه فإن هذا الأخير لا يعتبر الخطاب الأحادي سجالياً، و يشترط الآخر و ينعته بالمعاكس مع وجود القوة في الخطاب كشرط ثانوي لبقاء فعل السجال، و يعتبر موت أحد الطرفين نهاية الجدل.

"فكل من الأنا والآخر في الخطاب السجالي قلق وموت، كل طرف يبحث في رحلته داخل الخطاب عن ملاذ أو مأوى يحتوي به، أمام سيل النقد الموجة إليه في خطاب الطرف الآخر، فتارة يبحث عن نفسه داخل الجماعة: الفخر، وتارة داخل اللغة: اللعب والألفاظ، وثالثاً بمحاولات النيل من الآخر بالسخرية: الهجاء ورابعاً بإقامة علاقة إيجابية بين أفعاله والقيم الأخلاقية من ناحية، وإقامة سلبية بين أفعال الآخر، وهذه القيم من ناحية ثانية"²⁴.

فكل خطاب من هذه الخطابات وجدال من هذه الجدالات يقدم نفسه على أساس أنه قادر على استيعاب خطاب خصمه، ومنه فإننا في الحقيقة لسنا أمام خطاب سجالي واحد، وإنما خطابين أو أكثر إن صح التصور.

خامسا : الخطاب السجالي وعلاقته بالمعرفة

الخطاب السجالي خطاب إشكالي، خاصة من حيث منطلقاته وأهدافه، أو حتى آليات بنائه، حيث يبرز أهم إشكالاته في ارتباطه المعرفي بخطاب الآخر، ومن ثم لا يمكن دراسته بمعزل عنه، وكذا لا يمكن التعرف على حدوده المعرفية واللغوية إلا في إطار علاقته به؛ لأنه تعبير عن أشكال حضور الآخر في "الأنا" داخل الخطاب.²⁵ إن القيمة الإستراتيجية لهذا الخطاب تكمن في موقعه الفكري بين الخطابات الأخرى، وفي استراتيجية بنائه، وفلسفة المتحدث به، وسؤال الخطاب، لا يتعلق بما قاله صاحبه، بل الذي قاله ولماذا؟ ولأي هدف يستخدمه؟ وما الغاية منه؟ وما يجعلني أسميه بالسؤال المشكل معرفيا، لوجود أطراف مختلفة تسهم في صياغته ومنه تطرح عدة تساؤلات أخرى أهمها : أي دور للسجال في بناء المعرفة؟ هل يمكن أن نعد الخطاب السجالي خطابا لا معرفيا ؟ يتوخى إلى الإساءة إلى الخصم فقط، وإدانتته في المعركة الكلامية دون أن يكلف نفسه عناء الانخراط في التفكير الإستراتيجي الهادف إلى تطوير المعرفة والمساهمة في بناء الثقافة والوعي النهضوي والفكري.²⁶

ومنه هل يمكن أن ننظر إلى الخطاب السجالي بصرف النظر عن أهميته في الساحة الفكرية والثقافية واعتباره غير مشروع في الناحية الأخلاقية؟ ثم هل يتطلب الانخراط في العملية الحالية في المساجل أن يكون ذا كفاءة معرفية حتى لا يتهم أصحابه بالخطابات الفارغة؟

سادسا: صفة بناء المعرفة في الخطاب السجالي

إذا قلنا أن ثنائية "الأنا" و"الآخر" بنية معرفية للخطاب السجالي فإن قدرة الخطاب السجالي على استيعاب وعيين متصاعدين معرفيا تعد من أهم خصوصيات الخطاب السجالي، حيث يحاول كشف زيف النسق الثقافي للآخر قبل تأكيد وعده بذاته، فالكشف عن زيف الأنساق الثقافية للآخر، هدف استراتيجي في أهداف تحقيق "الأنا"، لكي نوثقها وصيرورتها.²⁷

و منه فإننا بصدد بناء شرعية و مصداقية – إن صح التعبير – من خلال الجدال المبني على المعرفة و تبادلها بين الأنا و الآخر .

و قد قسم بعض الدارسين الخطابات السجالية إلى قسمين : خطابات مركزية لقيت إقبال النقاد والباحثين لما تملكه من سلطة فنية وجمالية، وأخرى هامشية لا فائدة فيها، ومنبوذة تعرضت لأشكال من التضيق عن ساحة الدراسة النفسية .

"إن الهدف من البحث في هذه المسافة المعرفية، فهو استكشاف الحقل المعرفي الذي سمح لهذا الخطاب بالتداول والظهور، وذلك لمعرفة إلى أي معيار من الأسس العقلية استند هذا الخطاب؟ فالنسق الثقافي والمعرفي قد تغير في المرحلة الأموية في ثقافة القبيلة إلى الثقافة المدنية، وفي ثقافة الترحال إلى ثقافة الحِل والاستقرار وفي ثقافة الأنا المتضخمة إلى ثقافة الاعتراف بالآخر"²⁸.

إن فكرة الخطاب التداولي وظهوره مرتبط بمدى معرفة المسافة المعرفية بين الأنا والآخر، وطبيعة هذا الخطاب وتطوره من جيل إلى جيل آخر.

يمكن القول أن مصطلح "الخطاب السجالي": "Polemirs discourse" على درجة من الأهمية حيث تنوع مجالاته المعرفية بين الدين والسياسة والعلوم والتاريخ والإعلام وحتى الفلسفة... ويعتمد هذا النوع من الخطابات على منطق الحجاج والإقناع بين طرفين، حين يتطلع كل طرف إلى دحض آراء الآخر من ناحية، ومحاولة إقناع الجمهور بآرائه وحججه من ناحية أخرى...و من ثم يمكن اعتباره وسيلة تعبير للذات في حوارها مع الآخر، ووعاء معرفيا يستوعب معارف تتخذ من الحجج والبراهين منطلقا لها، ويحقق طرفا الخطاب انتصارا هائلا يبدأ الحوارية والتواصل²⁹

يمكن القول أن شعر النقائض باعتباره نوعا من المساجلات بالمصطلحات الحديثة، قد حضي باهتمام واضح في أوساط الدراسات الأدبية، في العصر الحديث والمعاصر، ولكن هذا الاهتمام ظل أسيرا وطأة الصدمة التي مني بها الفكر العربي نتيجة الهيمنة الثقافية...في حصر هذا النمط عن النصوص في إطار خلافي يدور في فلك السب والقذف، وكان هذا الإطار مبررا كافيا لعدم تدريسه ضمن مقررات التعليم الأساسي، وحتى في التعليم الجامعي لم ينل حظه مثل أنماط الشعر الأخرى³⁰.

و تقول الباحثة ملكي شامة: "...وتعد النقائض أيضا من أرقى فنون الشعر في العصر الأموي، فقد كانت ظاهرة أدبية مميزة، حيث مثلت لونا من ألوان الصراع الأدبي بين الشعراء، وعلى الرغم من كونها امتدادا لمساجلات العصر الجاهلي إلا أنها اعتبرت لونا جديدا من ألوان الأدب و المناظرة الأدبية، لما أحدثته من تقنيات جديدة في مجال الجدل و المحاجة الشعرية³¹"

فرغم تطور المناهج النقدية و الاتجاهات الأدبية في دراسة النصوص الأدبية في العصر الحديث و حتى المعاصر ، إلا أنه فرض سيادة هذه المفاهيم السابقة والأحكام الجاهزة، ومنه شعر الباحثون بعدم الجدوى من دراسة هذا النوع من النصوص الشعرية، على الرغم أن الاتجاهات النقدية الحديثة وفي مقدمتها " حوارية باختين " وتناس جوليا كريستيفا، تؤكد معظمها أهمية الوعي بالآخر واستراتيجيات الحوار والتواصل بعدد غير مسبوق، في مجال وتحليل الخطاب و علوم اللسانيات على الخصوص، وهذه إشكالية يمكن طرحها في سياق نظرية المعرفة القابلة للتصور و الاجتهاد ،

يقول الباحث محمد عبد الباسط عيد: " فالنص القديم – من وجهة نظر هذه الدراسة – يقدم تجربة جمالية في فضاء تاريخي واجتماعي محدد...و هو ذو طاقة تأثيرية تداولية كبيرة، نخطئ كثيرا حين نقصر دراسته على بنيته الداخلية و مابينها من علاقات، دون أن ننظر في طاقته الحجاجية³² .."

فالباحث محمد عبدا لباسط نادى بضرورة الخروج من الأسر الذي رسخته نظرية النظم و دعمه التيار البنيوي -على حد قوله- إلى أفق تداولي حجاجي يعتبر النظم و الدراسات البنيوية و الأسلوبية منطلقات تأسيسية وصولا إلى المتلقي³³.

ومن الواضح أن كل معرفة في مجال الخطابات السجالية والقائمة على الدراسات والإحصائيات هي حصيلة التطور في التراكم الفكري والمعرفي داخل سياق هذه الخطابات، وهي معرفة حكمت على صاحبها بإنتاج وعي خاص يجعله قادرا على تحقيق التقدم الفكري من خلال آليات النقد والمراجعة والتصحيح .

سابعاً: الخطاب السجالي والكفاءة المعرفية

يمكن طرح هذا التساؤل أولاً : هل يحتاج صاحب الخطاب السجالي -الذي يحاول الانتصار على الخصم- إلى التزود بخلفيات وكفاءات معرفية وأفكار انفتاحية على الموضوع قيد الدراسة حتى يفهم الخصم ويغلبه؟ وهل الثقافة المعرفية في العملية السجالية ضرورية جداً لمشاركة مواضيع أخرى انزياحية تساعد على الفهم وإقامة الحجج عن الموضوع الرئيس؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن تجعل للعملية السجالية معايير علمية وأدوات معرفية يمكن أن نلتزمها؟

إن هذه الأسئلة تبدو مبتذلة، غير أننا نستطيع القول أن العملية السجالية تحكمها أسس معرفية وتساهم في إنتاجها وتتفاوت من مساجل الآخر .

"ومنه فإن المساجلة تتطلب وتقتضي في المساجل أن يكون ذا كفاءة معرفية، تأهله لخوض المعركة الكلامية ضد خصمه، إذا لا يمكن للسجال أن ينجح دون أن يستند إلى مرجعية فكرية تأطره وتجعله ذا غاية إبستمولوجية"³⁴.

إن انتفاء صفة الكفاءة المعرفية بين أطراف المساجلة يعد من ضربا من ضروب اللغو والثرثرة غير المحتكمة إلى مستند معرفي أو لغوي أو ثقافي .

يبدو لنا أن إشكالية الخطابي السجالي الشعري مع المتلقي العربي تتمثل في اعتقاده بأن هذا الخطاب يطرح قضايا أو إشكاليات تبتعد عن التصورات المألوفة لدى المجتمع نفسه و يكون هذا سببا مباشرا في غرابته، وتوضيح ذلك نسوق المثال التالي :

يقول الأخطل³⁵ :

مَا زَالَ فِينَا رِبَاطُ الْخَيْلِ مَعْلَمَةٌ *** وَفِي تَمِيمٍ رِبَاطُ الذِّلِّ وَالْعَارِ

النَّازِلِينَ بَدَارِ الذِّلِّ إِنْ نَزَلُوا *** وَتَسْتَبِيحُ كُلِّيبٌ مُحَرَّمِ الْجَارِ

فيجيبه جرير بقوله³⁶:

قَوْمِي تَمِيمٌ هُمْ الْقَوْمُ الَّذِي هُمْ *** يَنْفُونَ تَغْلِبَ عَنْ بَحْبُوحَةِ الدَّارِ

النَّازِلُونَ الْحِمَى لَمْ يُرَعْ قَبْلَهُمْ *** وَالْمَانِعُونَ بِلاَ حِلْفٍ وَلَا جَارِ

فكلمة "النازلون" تحمل معنى متناقض في الخطابين، فهي تحمل معنى الذل لأهل جرير وعشيرته في خطاب الأخطل، بينما تحمل معنى الشهامة والنبيل لأهل جرير وعشيرته في خطاب جرير .

وكلمة "جار" جاءت لتأويل معنى الذل لأهل جرير وعشيرته، بإغرائهم على جيرانهم وهتك حرمتهم، وقد أسهم وعي الأخطل بتعاليم الدين الإسلامي بدور كبير في ذكر لفظ الجار ...و من هنا نستطيع القول بأن لفظ الجار أصبح ذا بنية انفعالية أثارت جريرا، فأتى يلفظ الجار أيضا ولكن بتأويل يخالف معناه في بيت الأخطل فهو في بيت جرير يشير إلى معاني الفروسية والشجاعة والنجدة متمثلة في حماية الجيران والدفاع عنهم بدون عهد أو موثيق³⁷ .

وعلى الرغم من هذا فإن فكرتي الحضور والتجاوز تقومان في هذا الحوار الغير مباشر من خلال التناقض الواضح بين الأفكار، ففي كل قراءة معنى جوهري تقدمه ذات متعالية، واعية بذاتها والآخر، وهي في الوقت ذاته تتجاهل عن قصد الممارسات القهرية التي يمارسها معنى الآخر على الذات، وتسعى الأنا إلى أن تعيش

في الآخر وتتسلل إليه مستعملة الخطاب الإيديولوجي، وتسعى على جلب انتباهه عن طريق سياقات مغايرة، وتأويلات متجددة، وكل شاعر يسعى لخلق توازن فكري ونفسي من خلال حججه التي يقدمها سعياً لتجاوز خطاب الآخر وفي هذا السياق يستند الشاعر في إعداد حججه وقراءته على ثلاثة مصادر يحددها : ليونيل بلينجر، على النحو التالي :

• الثقافة والتاريخ "المصدر المعرفي"

• طرائق التفكير "العادات، المنطق، التجريب"

• الخواص الانفعالية "المواقف والأحاسيس"

وعلى هذا يبدو السجال ممارسة نفسية منطقية مندرجة ضمن ثقافة معينة، ويتم إعدادها من أجل التفاعل مع الممارسة النفسية المنطقية للشركاء المعنيين³⁸.
الخاتمة :

إن مما سبق طرحه نستخلص النتائج التالية :

- 01- رغم الغنى المعجمي العربي إلا أنه يستحيل ضبط مفهوم واحد للخطاب السجالي، مع غياب قواميس تاريخية تتعقب تطوره الدلالي والاستخدام.
- 02- الخطاب السجالي أول مشكل يواجهه تحديد ماهيته ومفهومه الزبقي الذي يختلف من باحث إلى آخر، حتى وإن اصطللنا على تعريف واحد فإنه لا يفهمه حقاً في كل خصائصه وسماته.
- 03- تعدد خصائصه وأجناسه وفنونه جعل الخطاب السجالي فناً متلوناً بالاختصاص الذي يوجد فيه وتمايز مرجعيته وتداخلها مع الكثير من الخطابات الأدبية منها والنقدية وحتى السياسية والدينية والفلسفية إذاً هو شكل من أشكال التفاعل الخطابي، وحدثاً لفظياً تواصلياً بين الأنا والآخر، يحيل إلى معنى المباشرة بين الخصمين إلى درجة العداوة والحرب أحياناً.
- 04- الخطاب السجالي بهذا الاعتبار هو خطاب شرطه الوحيد هو تعدد المنجزين، ونحن لسنا مع خطاب واحد.
- 05- لا يمكن للسجال أن ينجح دون أن يستند إلى مرجعية فكرية تأطره وتجعله ذا غاية إبستمولوجية. و على العموم فإننا استطعنا أن نقرب أكثر من مفهوم الخطاب و أهم خصائصه ومن أين يستمد أصوله وأدواته وقيمه باعتباره شكلاً أدبياً أو نقدياً فلسفياً... يهدف لرسالة يشترك فيها طرفين.

هوامش وإحالات المقال

¹ - باشا العيادي : فن المناظرة في الأدب العربي - دراسة أسلوبية تداولية، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن 2014م، ص66.

² - ابن منظور : لسان العرب، دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دط، القاهرة، مج6، مادة " سجل " مج3، المرجع السابق، ص1946.

³ - المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، ط4، مكتبة الشروق الدولية مصر، 1425هـ-2004م، ص417

⁴ - ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة " سجل " مج3، المرجع السابق، ص1947.

⁵ - سورة الأنبياء، من الآية 104..

⁶ - سورة الفيل، الآية 4..

- 7- ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "سجل" مج3، المرجع السابق، ص1947.
- 8- مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات إحياء التراث، مادة (نص) المجمع الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، جمهورية مصر العربية، 1425هـ/2004م، ص417.
- 9- هيثم سرحان، بلاغة الخطاب السجالي – مقارنة تداولية في مراسلات أبي جعفر المنصور والنفوس الزكية، منشورات الأبحاث عدد60، 61، (2012-2013)، ص65.
- 10- ينظر باشا العيادي، السجال في الأدب العربي، أشكاله ووظائفه (الجاحظ أنموذجا)، مجلة الأزمنة الحديثة، الرباط – المغرب، ع5، 2012، ص199.
- 11- ينظر : معجب العدواني، وضياء الكعبي، الخطاب السجالي في الثقافة العربية، مقارنة تأويلية، دار الانتشار العربي، بيروت – لبنان، 2014م، ص02.
- 12- عبيد حاتم، في تحليل الخطاب السجالي : تعقيب عبدالرزاق بنور علي، كتاب "أهم نظريات الحجاج..." أنموذجا، مجلة فصول، ع75، دار المنظومة العربية، شهر ربيع سنة 2009، ص160.
- 13- المرجع نفسه، ص161.
- 14- عبيد حاتم، في تحليل الخطاب السجالي : تعقيب عبدالرزاق بنور علي، كتاب "أهم نظريات الحجاج..." أنموذجا" المرجع السابق، ص03.
- 15- المرجع نفسه، ص3 بتصرف.
- 16- ينظر : غزلان هاشمي، إشكالية التحيز الثقافي عند عبد الوهاب المسيري، ضمن مجلة البلاغة والنقد الأدبي، ع2، خريف – شتاء، 2014، 2015، ص113.
- 17- ينظر ياسين الشعري، الخطاب السجالي من الاختلاف إلى مناقضة الاختلاف – مقارنة بلاغية حجاجية، ط1، دار دجلة الأكاديمية للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة، العراق – بغداد، 2022، ص20.
- 18- عبدالرزاق بانور، في تحلي الخطاب السجالي : كتاب أهم نظريات الحجاج أنموذجا، المرجع السابق، ص166.
- المرجع نفسه، ص158.
- 20- المرجع نفسه، ص156.
- 21- ينظر المرجع نفسه، ص156.
- 22- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت – لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1434هـ/2013م، ص131.
- 23- عبدالفتاح أحمد يوسف، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي – ليبيا، 2014، ص36.
- 24- المرجع نفسه، ص23.
- 25- المرجع نفسه، ص37، 38.
- 26- المرجع نفسه، ص24، 25.
- 27- ينظر المرجع نفسه، ص35.
- 28- المرجع نفسه، ص13.
- 29- المرجع نفسه، ص16.
- 30- ينظر المرجع نفسه، ص20.
- 31- ملكي شامة، الحجاج في شعر النقائض – دراسة نصّين لجري و الفرزدق، دط، دار ميم للنشر، الجزائر، 2010، ص07.
- 32- محمد عبد الباسط عيد، في حجاج النص الشعري، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2013، ص49.
- 33- ينظر المرجع نفسه، ص49، 50.
- 34- ياسين الشعري، الخطاب السجالي من الاختلاف إلى مناقضة الاختلاف – مقارنة بلاغية حجاجية، ص29، 30.
- 35- عبدالفتاح أحمد يوسف، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، المرجع السابق، ص48، 49.
- 36- المرجع نفسه، ص49، 50.
- 37- المرجع نفسه، ص49.
- 38- ينظر : عبدالفتاح أحمد يوسف، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، المرجع السابق، ص50 نقلا عن ليونيل بلينجر " الآليات الحجاجية للتواصل"، كريمة عبدالرفيق يوركي، علامات، فاس – المغرب، ع02، 2004م، ص32.

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دط، القاهرة، مج6، مادة "سجل" مج3.
3. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، ط4، مكتبة الشروق الدولية مصر، 1425هـ-2004م.
4. في الأدب العربي -دراسة أسلوبية تداولية، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان -الأردن 2014م.
5. باشا العيادي، السجال في الأدب العربي، أشكاله ووظائفه (الجاحظ أنموذجا)، مجلة الأزمنة الحديثة، الرباط - المغرب، ع5، 2012.
6. عبداللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1434هـ/2013م.
7. عبد الفتاح أحمد يوسف، الخطاب السجالي في الشعر العربي، تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي - ليبيا، 2014.
8. عبيد حاتم، في تحليل الخطاب السجالي: تعقيب عبدالرزاق بنور علي، كتاب "أهم نظريات الحجاج..." أنموذجا، مجلة فصول، ع75، دار المنظومة العربية، شهر ربيع سنة 2009.
9. غزلان هاشمي، إشكالية التحيز الثقافي عند عبدالوهاب المسيري، ضمن مجلة البلاغة والنقد الأدبي، ع2، خريف - شتاء، 2014، 2015.
10. ليونيل بلينجر " الآليات الحجاجية للتواصل"، كريمة عبدالرفيق يوركي، علامات، فاس -المغرب، ع 02، 2004م.
11. مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات إحياء التراث، مادة (نص) المجمع الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، جمهورية مصر العربية، 1425هـ/2004م.
12. ملكي شامة، الحجاج في شعر النقائص - دراسة نصّين لجريرو الفرزدق، دط، دار ميم للنشر، الجزائر، 2010.
13. معجب العدواني، وضياء الكعبي، الخطاب السجالي في الثقافة العربية، مقارنة تأويلية، دار الانتشار العربي، بيروت - لبنان، 2014م.
14. محمد عبدالباسط عيد، في حجاج النص الشعري، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2013.
15. هيثم سرحان، بلاغة الخطاب السجالي - مقارنة تداولية في مراسلات أبي جعفر المنصور والنفس الزكية، منشورات الأبحاث عدد60، 61، (2012-2013).
16. ياسين الشعري، الخطاب السجالي من الاختلاف إلى مناقضة الاختلاف - مقارنة بلاغية حجاجية، ط1، دار دجلة الأكاديمية للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة، العراق -بغداد، 2022.